القسم الثالث

فلسطين إيالة عثمانية

الفصل الثالث عشر

(٦٩) تمهيد

ان دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها على ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن يخصص لها باباً ندوّن فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التى جرت فى أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وفق إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

أ – حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء على مملكتهم فسلخوا جزءاً كبيراً من جسم امبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول فى القسطنطينية وتلاهم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً فلم يقدروا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتولوا فى أوروبا وحاصروا الأستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا على ممالك الرومان فى أوروبا وآسيا.

ب – أصلهم

كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدراً للأمم الـتي كـانت تبـدو صغيرة ثم تنتشر فتزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلى كحجر يلقـى في بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعـدت عـن مركزهـا أو كصخـر انحـط مـن عـلٍ فكلما طال في جريهِ زادت سرعته واشتد انحداره، أما الأتراك العثمانيون فهـم من جيل التتر "القبيلة الطورانية" الذيـن سـكنوا حـدود الصـين ثـم زحفـوا إلى تركستان فتجنبهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهـم احتـك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيتهم ودانوا بالدين الاسلامي فى القرن الحادى عشـر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم سـلجوق والعثمـانيون الذيـن ينتسـبون إلى السـلطان عثمـان الغـازي وهـو الحجـر الأول فـى أسـاس دولتهم.

ج – تكوّنهم

فى سنة ٦٨٧هـ وسنة ١٢٨٨م بدأت نواة الدولة العثمانية تتكـل فـى الأناضول على أصل الدولة السلجوقية ومـازال يمتـد جذرهـم ويبسـق فرعهـم حتى تغلبوا على اخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينـا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمـال البحـر الأبيـض ولم يقفوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الاسلامية الأخـرى بـل تعدوا طورهم وضنـوا على العـرب بالخلافـة "السـلطة الروحيـة" وتطلعـوا إلى اغتصابهـا منهـم. فإن العرب قبلوهـم همجـاً وهذبوهـم وصقلوهـم وربوهـم

وعلموهم الديـن الاسـلامى الحنيـف وعرفوهـم عبـادة الله عوضـاً عـن عبـادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هـذا الجميـل وغلبوهم على تلك المملكة الواسعة التى فتحوهـا بجدهـم ونشـاطهم وروحهـم الدينية وسلبوهم أياها وهذا يشبهُ مـاحدث للرومـان مـع برابـرة الألمـان الذيـن ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسطوا على مدنيتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سـلكوا شـريعة نبيهـم ﷺ ودخلـوا فـى دينهم واقتبسوا تقـاليدهم فـأصبح الأتـراك وهـم الغـالبون مغلوبـين لارتبـاطهم باللغة العربية الدينية وزيـارة البـلاد العربيـة لأداء فريضـة الحـج فهـذه العلائـق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحـزب الوطنـى فـى أنقره وقرر أن تتلى خطب الجمعة فى البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكـم لغة محمد ﷺ.

(٧٠) نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شـاه التركمـاني سـلطان بـلاد ماهان قرب بلخ نفر من جنكيز وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلمـا انتهى إلى الأناضول رأى جيشين يلتطمـان ويتحاربـان فعـلاً نشـزاً مـن الأرض حركاتهما الحربية ولما آنس مـن أحـد الفريقـين ضعفـاً وخذلانـاً هـب بفرسـانه لنصرته وأعمل السيف في الجيش المنتصر فهزمه وبدّد جيشه وبعد أن انكشـف الغبار علم أن من انجده كان الأمير علاء الدين سلطان قونية(*) الذى شكـــره

(*) احدى الامارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انجلالها.

على نجدته وصنيعه واقطعه عدة مدن واتخذه ركنه وعماده فى حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب "مقدمة السلطان" ولما توفى أرطغرل خلفهُ ولده عثمان وأخذ لقب بك مثل، أمير، لورد، فيكونت، وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة فعرج إلى قمة الرقي تدريجاً حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث الدين السلجوقي فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه "بادشاه آل عثمان" واتخذ مدينة بكيش هر عاصمة له وخلفهُ ابنهُ أورخان فاستولى على جزء من أوروبا الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنسيتهم وباركهم يخ طريقة البكطاشية المقيم فى أماسية وسماهم (بكى جاري) "الجيش الجديد" فتحرف الاسم إلى انكشاري فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن برونسيا وارهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد "بكى جاري" وزاد عدده فاخترق قرب البلقان ومكدونيا وفتح الأستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قنصوه الغوري وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انثنى إلى محاربة الملك الغوري فتصادف الجيشان فى مرج دابق "قرب حلب" ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم على مدن

سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم على أعقابهم واستولى على فلسطين وفتح مصر فقضى على آخر ملوكها وضمها إلى ملكه فى سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام ادارية ووزع النفوذيين الأمراء فكان كل منهم رقيباً على الآخر وقفل راجعاً إلى الأستانة مستِصحباً محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذي تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمهُ الآثار النبوية البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الأستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول ا لله وأميراً للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسه وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصاً على الدين أو حماية للاسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم امبراطورية عظمى.

(٧١) السلطان سليمان ومابعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءاً بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكنا نقتصر على ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولايزال اسمه منقوشاً على صفحاته ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربي وفتح باب السيدة مريم وسد الباب الذهبي "شرقي الحرم" ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المحطة من باب الخليل وهو الذى نظم القوانين

فلقب بالقانوني وكان سلطاناً عظيماً وادارياً حازماً وبطلاً قديراً وصلت تركيا في أيامه إلى ذرى مجدها حتى أنه هدد المجر واستريا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل في طاعته خير الدين باشا باربا روس فولاه قيادة الاسطول وأوقع الرعب في دول أوروبا البحرية. وفي عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردي الغزالي فاستولى على قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخمد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالى.

وفي أواخر القرن السادس عشر فشى استعمال التبغ في سورية ومصر وأقبل الجميع على تدخينه. وفي ذلك القرن استولى الأمراء المعنية على نابلس وأطرافها وعينوا عليها ولاة من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة(*) حاصروه في قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفي هذا القرن عظم شأن الأنكشارية وأستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفي سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجي بالأمير يوسف الشهابي فأمدَّه بجيش كثيف من أهالى لبنان وحاصروا عاصمتهم "قلعة صانور" فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

(*) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين

عرب ودروز أَجونا صايلينـــــــا من العرقوب أجونا صايلينـــــــا

.....

وقال شاعر اللبنانيين

جينـــا بـــلاد جـــدي ماوصلهـــا عـــرب ودروز والدولـــة تصلهـــا

عربستان يارب نصلهـــــــــــا بحق البيت أو ما زاره صحابـــــــة

(٧٢) خروج الأمير على بك المصري والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانيـة أرسـلت روسـيا اسـطولاً إلى البحـر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلـى بـك المصـري الملقـب بشـيخ البلـد فخرجا على الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى "بابى الذهب" إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له علـى المنـابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فأن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيادنة فى الفتح الاسلامية الصلاحي وكـانت اقطاعـاتهم خمـس قـرى وهـى: بيت أكسا والنبى صموئيل والجيب وبيت نابالا وبيت حنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمـرو فأكرمـه محـافظ القلعـة وظـل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفهُ ابنهُ ظـاهر المشـهور فـاتفق مـع المتاولة حكام صور وبلاد بشارة وخالف الدولة فسـير إليـه والي دمشـق جنـداً فاستصرح زميله على بك المصرى وزين لـه الخـروج علـى سـورية والاسـتيلاء عليها فجهز إليـه عشـرة آلاف مقـاتل مـع القـائد إسمـاعيل بـك وأمـره بطاعـة

الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر فى يافا باحتفاء وأتوابهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليوقعوا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكراً آخر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين الف مقاتل وحاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هارباً فاستولى أبو الذهب على دمشق واعتزم على أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول اسماعيل حول عزمه وأفسد اخلاصه فرجع إلى مصر موالياً للدولة مغاضباً على بك ومزاحمه فغلبه على أمره والجأه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجدا الأسطول الروسى فساعدهما من البحر وامتلكا صور وصيدا وطردا الوالي درويش باشا(*) ..

ثم اتفقا على محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلهم قرب غزة وحاربهم فكسرهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيراً فلاطفهُ أبو الذهب ولكنهُ مات من جرحه. ولما رجع الظاهر إلى عكا مخدولاً عفا عنهُ السلطان وولاه إيالة صيدا وعكا فلم يخلص نيتهِ فخرج إليه أبو الذهب من مصر بعسكر كثيف وخيم حول غزة وحاصر كريم بن ظاهر العمر فى يافا ٦٠يوماً ففتح المدينة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل على عكا ففر ظاهر منهُ ملتجئاً إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهراً بالحرب إن لم يؤد ما عليه

(*) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

من الأموال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده رداً قاسياً فحاصره وضيق على المدينة وضبطها وأسره واحتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة فى حالة سلم وهدوء وطوراً تهيج فيها نار الحرب والثورة وتكثر فيها الخوارج وما السبب الا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن وثارت الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية فى القرن الثامن عشر حكومة لامركزية أى اقطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثه يحكومون بنى مالك وبنى حسن وبنى زيد وبنى مرة وبنى سالم فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ "العدلية" ويقبلون حكمه لامحالة. ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن فى سجنهم وكان الشيخ أو الأمير يجبى الضرائب ويقدم المقطوع عليهم للوالى ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمير ايالته وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء والولاة فأدّى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً فى الأموال والرجال وقد

تنبهت الحكومة لهذه الأضرار الناجمة فعمدت إلى اضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزار فى عكا وأشارت إليه بابادة المتنفذين ونصر ولاتها المخلصين لكنها لم توفق إلى انجاز هذا العمل إلا سنة ١٢٨٧هـ وسنة ١٨٧٣م حيث ألغت الامارات ومناطق النفوذ وإدارات البلاد بموظفيها. وهذا الاسلوب يشبهُ ما فعله لويس الحادي عشر فى فرنسا فانهُ مازال بالأمراء والنبلاءِ حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذى كان حاجزاً بينهُ وبين الشعب.

(٧٣) أحمد باشا الجزار

هو رجل بشناقي الأصل من بلاد البوسنة كانت نفسه نزوعة إلى الأعمال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت به الحكومة إلى مصر ليستأصل شوكة المماليك الذين كانوا شبحاً فى حلقها فاتبع سياسة القاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بامنيته وكان طائش السيف ظالماً بطاشا استحل الموبقات وولغ فى النفوس فسخط عليه عامة الشعب والحكام ففر ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي ليتبع أمراء سورية بمماليك مصر.

وفى سنة ١٧٧٠م أنيطت به المحافظة على مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع على العصيان ففطن لذلك الأمير يوسف وباغته وهمّ أن يبطش به فقابله الجزار بالخضوع والطاعة واستمهله ٤٠ يوماً ثم جاهر بالكفران فغلب على أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين على بن ظاهر العمر وقعات خذل فيها على وفرّض من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار على ماكانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له

وبنى عليها سوراً ثانياً وجامعاً كبيراً هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ على بعض حتى أصبح من أكبر ولاة وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة به واعتمدت عليه فى تنفذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتداً "خازوقاً" كان يجلس عليه من خالفهُ لو عانده فأرهب الناس وأخاف أهالى البلاد لأنه كان لايثبت على حال مع صديق أو عدو فبينا نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليه إذا به غداً قد أصبح فريسة لسيفهِ وهدفاً لسهام انتقامه. فيروى أنهُ ذهب لأداء فريضة الحج فبلغه ما جعله يرتاب فى أهل بيته فلما رجع شواهن فى النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤حجة ودفن فى عكا فى الجامع الذى بناه.

مرّ على فلسطين قرنان ونصف وهى نائمة لم يحدث فيها شئ سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءَت عرضاً فى أخبار غيرها وهيهات أن تكون فلسطين الصغيرة عضواً فى جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب فى صفحات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء فى العلم والشعر والأدب.

***

الفصل الرابع عشر

فلسطين فى القرن التاسع عشر

(٧٤) بونابرت فى فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالاسكندر وبومى وغودفرى وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد "جنرال" وامبراطور عظيم فحارب ايطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى عَلَى كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا انكلترا التى ظلت تناصبها العداء وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون بالقضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها انكلترا فكتم مافى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشاً ليحتل بهِ مصر مجرى تنفس الانكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشاً وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من الاخصائيين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسلل خلسة وهبط مصر فأَخذها ونظم إدارتها فاستشاط الأنكليز غضباً وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنساويين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزار والى عكا بأن يتقدم إلى مصر. فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون

من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض عَلَى الهند فاسترفق بعضاً من علماء الدين الاسلامى ليستعين بمركزهم الدينى عَلَى تنفيذ مآربه السياسية وفى سنة ١٧٩٩م سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزار قاسم بك خارج العريش وحاربهُ وشتت جمعه وأخذ ذخائره ولحقهُ نابليون باثنى عشر الف مقاتل فاحتل العريش وأَمَّن أهلها ثم سار إلى غزة[1] مفتاح فلسطين الجنوبى فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة[2] فأرسل فرقة من جيشهِ لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزار المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤُوط وأكراد وجركس فحاصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤّمنهم عَلَى حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الافرنسى فاستأْمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التى سلمت إليه أماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحار فى أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم الكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتول خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه فى قتلهم فخالفوه ولكنهُ أصر عَلَى رأْيهِ وأمر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص فى ١٠ آذار سنة ١٧٩٩م.

---

(١) ومكث مدة فى بناية آل رضوان "مأوى الدرك" اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سوآتهم ولعمرى أن هذا لمن أفظع الفظائع التى تنسينا همجية الأشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك واتيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكرى وأوحشها ومهما اعتذر عنهُ التاريخ وسرد له حججاً قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤُونتهم أو لأنهُ أسر بعضهم فى غزة والعريش وأطلقهم بشرط أن لايحاربون ثانية فان كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١- لأنهُ عاش فى القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا فى أيام الهمجية.

٢- ولأنهُ جاءَ من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

٣- ولأنهُ ظهر فى الثورة الفرنسية وكان غصناً من دوحة دعاتها الذين كان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو فى الحكم عَلَى نابليون فقط فأنا لو وضعنا فى مركزه لودندورف وجوفر وفوش واللنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجوَّزوا لانفسهم قتلهم واعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شخص فى حكم الطبيعة إلا كجمل دب عَلَى سرب نمل فداسهُ وحطمهُ وأباده.

(٧٥) نابليون والقدس:

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنها البلد التى يجلها المسلمون والمسيحيون وغاب عنهم أن نابليون ما كان ينظر إليها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسهِ أن يركب بجيشهِ الأهوال قبل أن يمهد السبل ويقضى عَلَى الجزار عدوه العنيد فطلب من حامية القدس تسليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمتى فتحتها تسلم إليك فتركهم وشأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهلها مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلفت أنظار القارئ إلى أسلوب بونابرت الذى اتخذه لارضاء المصريين والمسلمين وهيهات أن ينجح ساسة الغرب بتملقهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

(٧٦) منشور نابليون(*)

يسم ا لله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صورة تمليك ا لله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية.

تعرّف أهل مصر وأقاليمها أن العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار

(*) تاريخ مصر الحديث.

ووجدوا فى الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً مـن مخـازن البقسـماط "الكعـك" والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قرية مجهزة جهزها الجزار ليسـير بهـا إلى اقليـم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه اليها مـع العربـان الأشـرار مـن سفح الجبل ولكن تقادير ا لله تفسد المكر والحيل وما كان قصده سـوى سـفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنهُ من التجبر والظلم والجور فإنهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفاتهُ أن الأمر لله وكل شئ بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بنـدر يافـا مـن الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربيـة وأرسـلوا إلى حاكمها وكيـل الجـزار أن يسـلمهم القلعـة قبـل أن يحـل بهـم وبعسـكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفى ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنسـاوى عَلَـى محـاصرة يافـا وانقسـم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن عَلَى طريق عكا عَلَى مسافة اربـع سـاعات مـن يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافـا مـلآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزار الوفيرة.

وفى ٢٩ منهُ نـاهز حفـر الخنـادق النهايـة وصـار علـى مسـافة ١٥٠ خطوة من السور فأمر سارى عسكر أن تنصـب المدافـع عَلَـى المتـاريس وأن توضع أهوان القنابر بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجـانب البحـر لمنـع

الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزار فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنساويين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظناً منهم أنهم يتغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم عَلَى الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة سارى عسكر وخاف عَلَى أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه.

"لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له بسم ا لله الرحمن الرحيم

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لأنهُ تعدى بارسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها اقليم مصر التى أنعم ا لله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنوّه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فانهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل

اليكم هذا الخطاب تأميناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن نؤَخر ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة وأنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا".

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج وأشتد غضبه وأمر باطلاق المدافع والقنابر ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة وارتجع له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحمى الوطيس وكثر القتل. وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما عَلَى من كان فى يافا من أهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف أما الفرنساويين فلم يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان فى طريق أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا عَلَى المراكب التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفاً وثمانين مركباً وقد فات الجزار وعساكره أن آلات الحرب لاتدفع مقاديرَ الله فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على أحكام الله وعليكم بتقوى الله وأعلموا أن الملك لله يؤتيه

من يشاء والسلام عليكم ورحمة ا لله .

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا. فوصلها فى ٢١ آذار وحصرها خمسين يوماً وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والأميرال الانكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستفد الفرنساويون شيئاً لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة عَلَى الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنساويون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤَلف جيشاً من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقاً إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور "الطور" فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنهُ أتى قوم من المتاولة إلى نابليون فولاهم قسماً من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

"هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم عَلَى امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ومملك شرقى أوربا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلَى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤُونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فأنهُ أركب بعض جنوده حصانُه الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لايالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصباً فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد ا لله باشا أن يمدّ واليها فصدع بالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم عبد ا لله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَى أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد ا لله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كى يبصر رجالهن العدو ويرمونه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد ا لله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً من أهالى البلاد انضم إلى عبد ا لله باشا وحارب رؤساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لايجد الثوار حصناً

القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ونملك شرقى أوربا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم" فألهب حماستهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى (موجودة فى متحف باريس) فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلَى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بأمنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩ فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤُونتهم ولا يرى من ضرورة لاطالة البقاء فى سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتك الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر له تلك الشيمة السامية فأنهُ أركب بعض جنوده حصانُه الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث به طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

(٧٧) ثور نابلس

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ إبتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لايالـة عكـا، ونـابلس وبلادهـا ملحقـة بالشـام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقـوة فلـم يأبـه الـوالى لهـم بـل شـرع فـى تحصيـل الأمـوال غصبـاً ً فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩هـ وقاموا سلطة الوالى وامتنعـوا عـن دفـع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد ا لله باشا أن يمدّ واليها فصدع بـالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعـة صفـد فحـاربهم عبد ا لله باشا وعجز عن اخضاعهم فاسـتنجد بالأمـير بشـير الشـهابى اللبنـانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَـى أعقـابهم فـاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد ا لله باشا وضيـق عليهـم فكانت النساء تغمر اللحف بالزيت وتشعلها وتقذف بهـا ليـلاً خـارج السـور كى يبصر رجالهن العدو ويرمونه بالرصاص .

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر علـى عسـكر عبـد ا لله باشا لتمنعهم الاسـتقاء فطـاردهم الأمـير بشـير وهزمهـم إلى قريـة عجـة شمـالى صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعـف المحصـورون وذاقـوا مـن العنـاء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا . وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمـة ولا مدربـة تقـدر أن تعصـى وتقـاوم ولايـة عكـا التـى كـانت تمدهـا وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فان قسماً كبيراً مـن أهـالى البـلاد انضم إلى عبد ا لله باشا وحارب رؤَساء الثورة أسرة جرّار الذين لم يكـن معهـم سوى حزبهم وحسب. ولم يرح عبد باشـا البلـدة حتـى خـرب القلعـة وقسـماً كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لايجد الثوار حصنـاً

واتفقوا عَلَـى محاربتـه ومقارعتـه فنكـث جماعـة منهـم مـالوا مـع ابراهيـم باشـا فساعدوه ودلوه عَلَى الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظمـوا حركتهـم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف عَلَى القـدس فاحتلهـا وقـد تهـافت الأهـالى على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عنـد شـعفاط ولكن أهالى الخليـل هزمـوه عندبـرك سـليمان وحصـروه فـى القـدس فاسـتعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل مـن قتـل وشـنق مـن شـنق وتزلف اليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولتـه وأوامـره يقدمـون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القـدس لـه عاصمـة ومكـث يحكـم فـى البـلاد ١٠ سـنوات وفـى سـنة ١٨٤٠م سـنة ١٢٥٦هـ خذلتهُ فرنسا وضغطت عليه دول التحـالف فاضطرتـهُ للتخلـى عـن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للاستانة فقبل مكرهاً وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكاً.

(٨٠) حرب القرم

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حرباً ضروسـاً بـين الـدول الكـبرى وسلمت هى منها كقنبلة انبعثت مـن فوهـة مدفـع فلـم تضـره وانفجـرت فـى شرق أوروبا وقفقاسية فخربتهما. وأسباب هـذه الحـرب كثيرة منهـا التنـافس المستمر بين قسس الأرثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأمـاكن المقدسـة فى فلسطين ومن خلفهم روسـيا تؤيـد الأرثوذكـس وفرنسـا تعضـد اللاتـين لا لشفقة انسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما فى الشرق وللتدخـل فـى

شئون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٠م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت عَلَى أن لفرنسا الحق بحماية مسيحيي الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا عَلَى الكنائس وتصرفوا بها تصرف الممالك المستقل فاستاء الأرثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لالغاء هذه المعاهدة ومحق هذا النفوذ . فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسس الأرثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا عَلَى حقوقهم وسلبوهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولةالعثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالى لجنة من أشخاص مختلفى المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢م أن للكاثوليك الحق فى امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون انفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالى بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصرت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حيناً ثم جزمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. فاتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر "الاستيلاء على أستانبول والمضايف" وأرسلت البرنس منشيكوف سفيراً غير اعتيادى إلى الأستانة ليخابر المابين فى شأن الأماكن المقدسة فذهب وباشر مناوراته السياسية وطلب بالحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بأن يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فماطله الباب العالى ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الاستانة

وهددها باحتلال امارتى الافلاق والبغدان "رومانيا" فتوترت السياسة وتحزبت انكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروث واحتلت الولايتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعاً كبيراً من البلاد العربية(*) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الانكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان ماينال المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعاقلها.

وفى سنة ١٣٢٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الانكليزية عَلَى تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا عَلَى أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها فى فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحوا ذات البين.

(٨١) نقود وموازين ومكاييل فلسطين

ماعرفنا حكومة كانت معرضاً تجارياً لسلع وبضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانيةفانها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلاف المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحتها المنازع وقذفت بها من عل إلى درك الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة عَلَى فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادى لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها فى مملكتها

(*) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيداً وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الأفراح والولائم والمهرجانات.

ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها القانونى فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاييل وهذا جدول يدلنا عَلَى أسعار النقدين الليرة الأفرنسية والريال المجيدى "التركى" فى أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الأفرنسية	الريال العثمانى "المجيدى"	البشلك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	٣،١٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	٢٣،١٢	٣،١٦
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنهُ كان فى بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلة فى ما ذكرناه مما يدل عَلَى أن الحكومة فى واد والناس فى آخر لا يأتمرون بأمرها ولايسيرون سيرها حتى أن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الأفرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين وحسبنا شاهداً المتليك الأسود وما أحدثه من الشغب فى القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضهِ فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت ٧٠ فى

المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادى وخشيت تفشيه فى البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقداً "تنكة ببارتين ونصف" فراجت بين أهالى القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاييل فليست بأحسن من النقود فانها مختلفة الحجم متعددة النوع وهى: ثمنية، سدسية، ربعية، صاع، طبة، كيل، كيلة، مد، مسحة فبعض البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لايعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التى تشترك فى مكيال واحد تختلف فى كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلث رطل وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف ثم لكل بلاد إصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفننون فى سمله وطنطرته وبعضها يستعمل كيل المرسل(*) وكذلك الموازين فأنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور فى أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنهُ فى عكا وبلادها أقتان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ والقطين ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضاً فهى فى نابلس غيرها فى القدس وفى يافا غيرها فى حيفا وعكا وللقرى عيارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذى يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم

(*) بلا هز ولبد بل كما يسع الصاع.

الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح فى جميع الأقطار العثمانية.

(٨٢) بعض أسواق فلسطين

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضعون منها مايحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنهُ وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادى والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها عَلَى عرض المبيع فقط "أسواق تجارية" فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشارى ويتردد بين البائعين وينتقى منهم مايعجبه ويروق له فيسومه ويشتريه ثم ينصرفون قبيل العصر واشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع، أسواق الناصرة الرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت، أما أسواق القدس وغزة ومجدل وعسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيراً.

(٨٣) أقسام فلسطين الادارية

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقتسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما فى القرن

التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات ادارية كثيرة نلخصها كما يأتى:

كانت عكا حاضرة فلسطين الادارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام "باشا الدورة" أما النظار والمتسلمون "حكام البلاد" فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم "باشا الدورة" فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود عَلَى الاصلاح الغى فرق الانكشارية(*) وأبادها ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقاً منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومى وتزيى بالزى الأوروبى وأمر باتخاذه زياً رسمياً وعسكرياً. ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء فى البلاد العربية وتهجموا عَلَى فلسطين فنفوا بعض النظار "أمراء الأقطاع" إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات عَلَى رأسها وطنيون ثم ألغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الاقطاعية واستولى الأتراك عَلَى البلاد فعلاً فأمروا بتخرير النفوس وطوّبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام "البوليس والجندرمة" وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عملية بيروت وأمتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الأستانة مباشرة فى الأمور الإدارية وفى إبتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا

(*) له بقية فى فلسطين عائلة أبى جعفر فى الرملة ويوجد عائلات أخرى فى القدس ونابلس وعكا وغيرها.

ملحقاً ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مـأموريهم الأتـراك وقبضوا دفة الإدارة واتصلـوا بالشـعب ولكنهـم تقربـوا من أصحـاب النفـوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمـادوا فـى غطرسـتهم واسـتعانوا بقـوة الحكومة وأتخذوها آلة لتنفيذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامـر الحكومة ابتغاء الحزوة عند المأمورين وكان يعد سعيداً من كسب ثقتهـم وظفـر بودهم لأنه يسـتفيد مـن صحبتهـم بغـض أبصـارهم عـن أعمالـه مهمـا كـانت فيبطش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهـم ويمتـص دمـاءهم ويبـتز أموالهم ويعلو علواً كبيراً.

(٨٤) قيس ويمن وشيئ عن الاقطاع

هذا بحث جليل وددنا لو أن فى الكتاب متسعاً فنفيه حقـه ونـأتى علـى تاريخه بالتفصيل ولكـن صـدر الطـرس ضيـق والموضـوع محصـور فـى فلسـطين فلذلك نجمل ما خـرج عنهـا وندمجـه فـى أخبارهـا لئـلاً ينبـتر البحـث وتضيـع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بـين العـرب قبـل الإسـلام وظـل إلى يومنـا هـذا مصطبغاً بصبغات عديدة وأسماء مترادفة منها: العدنانية والقحطانية والحجازيـة واليمنية فـى الجزيـرة. والقيسـية واليمانيـة فـى جميـع الممـالك الإسـلامية خـلاً الأناضول وغربها. اليزبكية والجنبلاطية فى لبنان والفقارية والقاسمية فى مصر.

أما أسباب هذا الانقسام فإن أهـل اليمـن كـانوا يدعـون أنهـم أشـرف

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دارو عمر مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحة ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة "دار الخطيب" فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم راس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجبوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجلد يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أما غور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجرار" جرَّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءَ ابراهيم باشا استعلى دار عبد الهادى "قيسية" وشطروا البلاد فانضم إليهم

جوب كبير وهم وجرار من قصيلة واحـدة. وكـان أمـراء غـور بيسـان عـرب الغزاوية والصقر وفى سـاحل حيفـا دار مـاضى وبجـانبهم أهـالى صبـارين ودار الشبلى فى طيرة حيفـا أمـا فـى بـلاد عكـا فكـانوا عـرب الحواسـى "الهنـادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكـن لغـيرهم هنـاك عصبيـات قويـة مجتمعـة ولا عائلات كبـيرة بـل كلمـا عظـم شأن رجـل انسـاق إليـه حزبـه وسـيطر علـى ماجاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شـجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهـم بعضـاً وقـاوموا الحزب الآخر ومـن أحـس فـى نفسـهِ الضعـف استمد مـن الحـزب المجـاور لـه واستنصر بنى قومه عَلَى عـدوه وقـد تفـاقم الخطـب فـى القـرن التاسـع عشـر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ عَلَـى المـرور ببـلاد الآخـر معلنـاً شـعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لايذهبون إلى جلبها إلا "بفـاردة" جمع كبير مسلح ولايجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العـروس حلـة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فـلا يسمح لهم أن تجتاز البـلاد القيسـية وهـى لابسـة البيـاض وأن امتنـع أصحـاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشـر وكذلـك القيسـية فـانهم كـانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتهـا فـإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربشـة.

عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دارو عمر مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فانهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حِسن ومركزهم المالحة ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة "دار الخطيب" فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار "حمير" ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم راس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجبوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجلد يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أما غور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين "مشاريق الجرار" جرَّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءَ ابراهيم باشا استعلى دار عبد الهادى "قيسية" وشطروا البلاد فانضم إليهم

جوب كبير وهم وجرار من فصيلة واحـدة. وكـان أمـراء غـور بيسـان عـرب الغزاوية والصقر وفى سـاحل حيفـا دار مـاضى وبجـانبهم أهـالى صبـارين ودار الشبلى فى طيرة حيفـا أمـا فـى بـلاد عكـا فكـانوا عـرب الحواسـى "الهنـادى" ومركزهم غابة شفا عمرو ولم يكـن لغـيرهم هنـاك عصبيـات قويـة مجتمعـة ولا عائلات كبـيرة بـل كلمـا عظـم شـأن رجـل انسـاق إليـه حزبـه وسـيطر علـى ماجاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شـجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهـم بعضـاً وقـاوموا الحزب الآخر ومـن أحـس فـى نفسـهِ الضعـف اسـتمد مـن الحـزب المجـاور لـه واستنصر بنى قومه عَلَى عـدوه وقـد تفـاقم الخطـب فـى القـرن التاسـع عشـر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجـرؤ عَلَـى المـرور ببـلاد الآخـر معلنـاً شـعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لايذهبون إلى جلبها إلا "بفـاردة" جمع كبير مسلح ولايجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسون العـروس حلـة (هدماً) بيضاء "شعرا اليمنيين" حتى أنهم أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فـلا يسمح لهم أن تجتاز البـلاد القيسـية وهـى لابسـة البيـاض وأن امتنـع أصحـاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشـر وكذلـك القيسـية فـانهم كـانوا مجبورين على اتباع هذا العرب ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتهـا فـإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربشـة.

وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

(٨٥) الحرية فى فلسطين

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت عَلَى الحروب وأغفلت كل شئ فتقدمهم من كان متأخراً عنهم وعلاهم من كان دونهم فحاول السلطان محمود الاصلاح فلم يتوفق تماماً ولكنهُ أزاح عن أعين المفكرين نقاباً وجاء من بعده السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ وسنة ١٨٣٩م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغير ذلك مما تتطلبهُ الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاءَ مدْحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس عَلَى العرش أن يمهد له السبل ليكون سلطاناً بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويمتع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويع عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنهُ مقيد ففضه وأغلقهُ سنة ١٢٩٥م وشرط الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبيبة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سراً وعلناً وفازوا بأمنيتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من

خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكز المهمة وأذاعوا الحرية فى طول البلاد وعرضها وكتمت فى القدس حتى جهز بها الحاج راغب أفندى الخالدى والمرحوم حسين افندى سليم الحسينى وكان شعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثر الفساد وعم التعدى وضعفت الادارة الملكية وسادت الفوضى وضوءلت هيبة الحكومة وطمح الناس إلى احتقار الحكام وجهلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نواب عن البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحى بك الخالدى(*) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد افندى شقير وفتح المجلس وبعد حين باغتهم السلطان عبد الحميد وفتك بالأحرار وأعلن ثورة ضدهم باسم الدين وحاول القضاء عَلَى الروح الجديدة فداهمهُ محمود شوكت باشا الفاروقى واحتل الآستانة فاجتمع النواب وقرروا خلع السلطان سنة ١٣٢٥هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شر الطاغية الكبرى وجعلوا مكانه محمد رشاد الخامس وهنالك تكبر الاتحاديون وتولوا ادارة البلاد فقال بعضهم باستزاك العناصر الأخرى أو إبادتهم ولعبت الأيدى الأجنبية فهبّ رجال العرب وانضم إليهم متعدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحاولوا أن يكثروهم فى المجلسى فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا

(*) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلب فى مناصب عالية وله مؤلفات جليلة بعضها طبع والبعض الآخر جاهز للطبع.

وذهب عن القدس ثانية روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبى وأحمد عارف الحسينى (غزة) وعن نابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحل المجلس وأعيد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغب بك النشاشيبى وسعيد أفندى الحسينى وفيضى افندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حمِاد وأمين بك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح افندى السعدى. فتنبه العرب وأدركوا أنهم مغلوبون عَلَى أمرهم والأتراك مسيطرون عليهم فلم يطمئنوا ولم يرضوا عن هذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالاصلاح على قاعدة اللامركزية أى استقلال داخلى إلى جميع بلاد العرب وجهر بعض النواب والوجهاء بأمنيتهم ونادى طلاب مدارس الأستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقدوا مؤْتمراً عاماً فى باريس تداولوا فيه أبحاثاً هامة وقرروا قرارات خطيرة وبثوا دعاتهم فى سائر الأقطار والأمصار فكان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبى فأشبع روح الشباب بتعاليمه الوطنية حتى عالنوا الحكومة بأمانيهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهاشمى فاستوحشت منهم الحكومة العثمانية وترضتهم وهادنتهم واعتزمت على أن تحدث تغييراً فى قوانين وشكل ادارة البلاد العربية وقد نال بعض رجال العرب مناصب عالية وأمرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عرباً. وبينما هم يستخلصون حقوقهم تدريجياً فاجأتهم الحرب العامة فأخمدت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور المندفعة والأنوف الحمية.

(٨٦) ثورة حوران والكرك

أشرقت الحرية فى البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتافت نفوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم فى سنة واحدة ليضارعوا دول أوربا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سلموا من الدسائس الأجنبية وحكموا العقل قليلاً ولكنهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتها فطالبوا البدو بتقييد نفوسهم واجبارهم عَلَى التجنيد وأكرهوهم على دفع الضرائب تماماً فاستاءَ لذلك دروز حوران وشمخوا وتعالوا ونبذوا الأوامر وعصوا الأحكام فانقض عليهم سامر باشا الفاروقى كالصاعقة وأدبهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فأذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغه أن أهالى الكرك قد امتنعوا عن تعداد النفوس وفتكوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف اليهم واجتاز شرقى الأردن وأدخلهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بك المجالى وجعل أرضهم بلاداً عثمانية فعلاً وقسا عليهم ونكل بمن تعدى عَلَى المأمورين واستهان بأوامر الحكومةالرسمية ثم عاد راجعاً. وقد حدث فى هذه الفترة أن اكتسحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليا عَلَى طرابلس الغرب فاعترضها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحاربوا الدولة العثمانية فهزموها واغتصبوا بلادها المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدها.

الفصل الخامس عشر

(٨٧) الحرب العظمى فى فلسطين

هبت عاصفة عَلَى العالم فهزت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قرمين لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب أخذ عسكر ووزعت عَلَى جميع القرى مغلفات كبيرة مغلقة وأمرت المخاتير أن لايفضوها إلا متى أذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب عَلَى الصرب ودخلت المانيا لوكسمبرج وأنذرت البلجيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منهُ أنذرت انكلترا المانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب عَلَى روسيا وفى ١٠ منهُ أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت انكلترا الحرب عَلَى النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البلجيك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام "سفر برلك" وجمعت كافة جنودها المعلمين وساقتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحاً وأخذت تمرنهم عَلَى الأصول العسكرى الألمانى وشكلت لجاناً لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع مايلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس

ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهلون سلعهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت محايدة حتى أتاها نبأ من السير ادورد غرى وزير خارجية انجلترا أنهُ أخذ البارجة "السلطان عثمان" التى تعمل لحسابهم فى مصانع أرمسترنغ الانكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة عَلَى الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش ألا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ(*) فأجاب غرى أنهم مضطرون لابقاء جميع البوارج فى مياههم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطرادان الألمانيان غوبن وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن عَلَى استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والأستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النسافات التركية فسقطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين أول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة

(*) كان الصدر الأعظم العثمانى مصراً على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لايغرر بأمته أما وزير الحربية أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى المانيا.

أفرنسية فغضت السفراء وقطعوا علائقهم من الاستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهم لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندى مسلح وربع مليون فى معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب فى البلاد إلى أربعة مواضع (١) الدردنيل، (٢) القفقاس، (٣) العراق، (٤) الحجاز وفلسطين. وانا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائداً عاماً إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ الف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشى ممتاز بك[1] "قائد الف" فحشد من قبائل بدو السبع الفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الأنكليز تراجعوا إلى ماوراء القنال ثم ورد أشرف بك[2] ومعه لفيف من الأفغان والجركس والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشاره الألمانى هلدن غورف وبيده أمر من أنور باشا باعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلائع الأنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخر الأرزاق "أنابر" وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل

---

(١) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

(٢) جركسى الأصل ورئيس عصابة فى البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والانقلاب العثماني وكان ملبوس عصابته الجلد.

"أقوال" قوافل الجمال وغير ذلك نخص خلاً من هذه المواضيع بكلمة عَلَى حدة.

(٨٨) التموين "مداخر الأرزاق"

قبل أن أقدمت الدولة العثمانية عَلَى الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت لتوقع العصيان فأطاعها الأهلون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات "لجاناً" لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الأرزاق فأمروا بتأسيس مداخر لها فى كل محل وجعلوا المدخر العام فى بئر السبع فكان لايخلو مركز عسكرى أو ملكى من انبار ثم توسعوا فأنشأوها فى الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قناة السويس.

(٨٩) وسائط النقل "النقليات"

تكدّست الأرزاق فى مخازن الدولة فاحتاجت إلى ماينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشتبك بها البلاد ولتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت مايربو عَلَى ٤٠ الف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال والحمالة(*) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها

(*) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبع.

بمفتش ورقيب ألمانى فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقاولة المتعهدين لاتمام هذا النقص فقصرت همتها عن ايصال المنقولات فى حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لاهمال الضباط وقلة أعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة عَلَى جوانب الطرق متعاطفة عَلَى بعضها بعضاً. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال فى توزيع الأرزاق عَلَى الجنود داخل الصحراء وورد عليها أوتوموبيلات ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

(٩٠) تعبيد الطرق "العمليات"

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند فى وقت الحاجة إليها فأمرت بأنشاء الطرق وجمعت ضعفاء الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا عَلَى حمل السلاح "سلاحسز" وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير "فرق عمال" وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لمد السكك الحديدية والده قويل وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب فى ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكرى أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى عَلَى تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى عَلَى

وشك الوداع.

(٩١) المؤسسات "الانشاءات"

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة في الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء فحفرت الآبار وجرت المياه في القساطل "الأنابيب" إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضاً لسقى الحيوانات وصنابير "حنفيات" للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق(*) ومحلات للضباط.

واستغنوا عن كل هذا في المدن فتبسطت واستولت عَلَى جميع المؤَسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس الفرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح "معامل" فكان إذا ما تخرب شيّ يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا وافتضوا هيبتها واحتقروا عهودها وداسوا معاهداتها وعاملوا دولها معاملة النظير للنظير.

(٩٢) البعثة الألمانية العسكرية

تسلل بعض ضباط الألمان وتجند من كان في سورية وانخرطوا في الجيش العثماني فرأينا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا

(*) كثرت في هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكي.

إلى قائد الحدود كريس فون كريستين Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذى يصلح له وفتح الخواجه فاست مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير "قطع عسكرية" وفيهم الطيارون المدفعيون والمشاة وسائقو الأتوموبيلات فاستقبلهم القائد العام فون كريس وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم عَلَى محطة بئر السبع فقال:

أيها الأبطال! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيك ودككتم حصونها وتغلغلتم فى أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتم جميع أعدائكم الهوان وها أنا قد أتيت بكم لانفذ بعزمكم الألمانى فى شريان أنكلترا عدوة الإنسانية ولتنتزعوا من يدها القتال وتشفوا البشرية المتألمة من ظلم واستعمار أنكلترا ... الخ.

ثم ساروا وقد أُعد لهم مخيماً فاخراً فكانوا ينامون عَلَى سرر ويأكلون طيب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليهم خير المآكل فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بين الفريقين كادت تفضى إلى سوء العقبى فأسس الأتراك جميعة فى بئر السبع غايتها مقاومة النفوذ الألمانى فكبحوا جماحهم وخففوا من غلوائهم وظلت الفرق الألمانية والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

(٩٣) الجراد

لم يكف الناس ما حل بهم من البلايا حتى فاض عليهم طوفان من

الجراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشر الأشجار ثم غرس فى الأرض وباض وفرّخ فاستعد السكان لدفعهِ وقاوموه ولكن حاولوا عبثاً فانتشر ثانية زاحفاً عَلَى الأرض وطائراً فى الفضاء لايأتى على شئ إلا ذهب به ففزعت الحكومة وعينت جنوداً ومأمورين ملكيين لتلافى ضرره وكلفوا أهل البلاد باتلافهِ فعجزوا عن رد غائلته. وفى الحقيقة أن من كان يراه سابحاً عَلَى الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هنالك بحراً رجراجاً فتضعضعت الحالة الاقتصادية وساءَت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

(٩٤) الحركة الاقتصادية

أعلن النفير العام فانقطعت الواردات الخارجية وغلت أيدى أهالى فلسطين ودخلوا فى الجندية فأهملت الأرض وقلت الحاصلات لاسيما أن الحكومة أخذت تجبى ضرائبها عيناً فتأْخذ من الغلال حصتها وتشترى ثلاثة أضعافها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الجمية بأكثر مما هى ولم تقف أيضاً عند هذا الحد بل صادرت جميع الحاصلات وعينت لكل فرد من الأهالى مؤُونته وبذاره فقط واحتكرت البقية فسئم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمت الطامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت بيع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتاج يعرض مالديه ليبيعه بثمن بخس يشترى به قوتاً لعائلتهِ والجدائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقدى فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشاً ومع دناءَة سعرها

ورخصه فأنها كانت فى جبهة الأسد "وبها تقضى الحاجات".

(٩٥) الصحة العمومية

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلة أنهُ يقال الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتفشى الأمراض وتفتك الأدواء كمَا شاهدناه أثناء الحرب.

فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات "كناسة" وأكثرت من الأطباء والصيادلة وأناطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدُسنتاريا والكوليرا والتيفوس والتفوئيد فحصدت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

(٩٦) الأخلاق العمومية

فى خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين مازهدنا فى الحياة فأنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعيوب والمساوئَ فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم فلما أتت الجنود الألمان والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحوقلنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الانكليزية المزيجة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى

حرب أعظم من هذا سيما أن سكان المـدن ومـن جـاوروا معسـكرات الجنـود كانوا أكثر فساداً من سكان القرى البعيدة عنهم.

(٩٧) الديوان العرفى

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكـام العرفيـة فـى جميع أقطار مملكتهـم فكـان الديـوان مؤَلفـاً مـن مجلسـين هيئـة تحقيقيـة "اتهـام" ومحكمة عرفية فأتخذوا مركزه فى القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسـة العربية. فكانت جحيم المحاكم وبلية البشـر أعضـاؤه ضبـاط عسـكريون تربـوا عَلَى سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. فـى حكمـه القضـاء المبرم والمـوت العـاجل فـإذا سـبق المتهـم إلى الهيئـة التحقيقيـة استنطقه الضـرب بالسـوط والكـى بالنـار والتعذيـب الشـديد فيعـترف بـالجرم المنسوب إليهِ وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العـذاب المتطـاول فيكتبون إقراره رسمياً ويعتبرونهُ ويحولونهُ بأوراقهِ إلى المحكمة العرفية فإن خـالف قوله الأولى نزلوا عليه بالسياط وإن قبله تحكم عليـهِ بـأقصى درجـات العقـاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح(*) الـذى يفعـل مايشـاء ويختار مايريد فيبرمهُ بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغـاء مرضاة السياسة فأنهم اغتنموا هـذه الفرصـة وأخـذا يطبقـون سياسـة العسـف والقسـر فـأبعدوا الفـرق العربيـة والجنـود السـورية عـن بلادهـم ونقلوهـا إلى غاليسيا والدردنيل والعراق واستبدلوهم بأتراك وألمان ونمساويين وتمـردوا

(*) فى سنة ١٩١٧ ضيقت سلطته وصار جرم الأعداء لاينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتنورين فنفى البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا عَلَى كثير منهم بالاعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعتهُ ونفذ فيهم الحقكم فاحتقدها وثأر لهم قائلا:

إذا ما غضبنا غضبة مضريـــــة ِ هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

(٩٨) الثورة العربية

كتم جلالة الملك حسين عضبه وغيظه واستدعى الفرق المتطوعة(*) التى قدمها لجمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الحلفاء الذين قطعوا له عهوداً ومواثيق باستقلال جميع البلاد العربية فأعلن الثورة وعضده قساورة الحجاز وعرب الحويطات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت فى وجهه الطرق فانثلمت الثغور وتعطلت الإدارة وألتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمير فيصل وقاتلوا وقتلوا وظلوا يتكاثورن إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قائد فى فلسطين بقوله ان أهالى البلاد العربية أشد عداوة لنا من الانكليز.

(*) كانوا يلبسون ألبسة بيضاء وكفافى حمراً وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الانكليزى وكانوا ينشدون أهازيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام فى الحرب.

(٩٩) الحملات الحربية

كان يجب أن نقدم هذا البحث عَلَى غيره لما له من الأهمية ولكنا فضلنا أن نمهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصر لايكون بكثرة الجنود فقط بل بما يلزم لها من الذخائر والوسائط النقلية والتغذية والاعتناء الصحى والفن العسكرى.

أعلن الأتراك النفير العام وهم بين عاملين التزام الحياد أو دخول الحرب فما زالت بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم عَلَى اقتحامها فعضدوا الألمان آملين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا إمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمتهِ كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلباً فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر عَلَى مهاجمة القنال بقوة كبيرة لاعتقاده أنهُ يدخل مصر بسهولة بناء عَلَى استكشافاته أن قوة الانكليز كان ضعيفة فحالفهُ سعد ا لله بك رئيس أركان حرب جمال باشا وكان رأْيه أن يرسل بضعة طوابير لمشاغلة الانكليز ومساجلتهم فقط لأنهُ يرى أن اختراق الصحراء بجيش كبير لايرجى منهُ نفع فاستشاط فون كريس غضباً وأرغم جمال باشا على اتباع رأْيه ونبذ سعد ا لله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقوة مؤَلفة من ثلاثين الف جندى مسلح وكان وراءَهم فرقة أزمير الممتازة فوصلوا القنال وكشفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكن فون كريس بقى مخيماً فى "الابن" يتردد على جميع مراكز الصحراء ويغير عَلَى الأنكليز ويشاغلهم بأربعة

طوابير فقط وقد استدرج الانكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسر منهم أميرالاى وضباطاً وجنوداً ولكنهُ لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياههم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا عَلَى غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتها وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر "السبع" وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الأنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبى صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ عَلَى خط متعرج فخندق الانكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الانكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيش التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعاه فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فأخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين انكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئاً من المدنية. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العلمية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدينة؟ لاشئ من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطالبهم فعقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفر وسان ريمو وفرساى بنزع جميع أملاكهم فى أوربا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان ,ضاليا لايطاليا وكليكيا لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية وأجبتر تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من انكلترا وفرنسا وإيطاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كما باشا أبى أن يقر الذل فى أمتهِ وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه عَلَى قوة مدهشة وساعدته السياسة عَلَى ذلك فأخرج إيطاليا من أضاليا وفرنسا من كليكيا وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الأستانة وحصن دعوتيها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

(١٠٠) الهجرة

ماقرب الجيش الأنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمرون لهم سوءاً فيفرغونها من السكان يأمرونهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع عَلَى خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الأنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم من بناء هدم فى سبيل الحرب.

(١٠١) لمحة اجتماعية

لم نحلم بما كان مخبئاً لنا فى لوح الغيب فقد جاءَت الحرب وجـاء معهـا الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسـكر والقهـوة والأرز وغـير ذلـك من الواردات الخارجية فتبرم الناس من ذلك ثـم ألفـوه واستعاضوا عنـهُ بغـيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضاً وقصر اللسان عن اللـوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن فى جلب المعاش وإحراز القـوت [إلا أن الفلاح صاحب الحـاصلات ظـل حالـه مستوراً] وقـد كنـا نـرى النعـل مرقعـة واللباس مرفواً والطربوش مقلوباً حتى أن المسافر يخلـع نعلـه توفـيراً ... ولكـن اجتماع الجنود والأهالى ببعضهـم البعـض أكسـبهم فـائدة الاقتبـاس وشـاهدوا الألمان واحتكموا بهـم فنقلـوا عنهـم كثـيراً وسـاروا خطـوة واسـعة إلى الأمـام فالقروى الساذج الذى عاشر المدنى قبس عادته وما حسـن لديـهِ وأبنـاء المـدن الصغيرة سرت لهم العدوى لما عاشروا أبناء بيروت ودمشق وحلـب واجتذبـوا منهم الحسن ودبت فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الأنكليز ثـم أبصـروا مساوئ غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفصلوهم على أنفسـهم وطمحوا إلى مساواتهم.

الفصل السادس عشر

الاحتلال البريطانى

(٦١) الإدارة العسكرية

فى أواخر سنة ١٩١٧م اكتسح الجيش البريطانى جنوبى فلسطين واخترق منطقة طولكرم فى ١٩ أيلول سنة ١٩١٨م فقضى عَلَى الجيش التركى وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت عَلَى أثرها حكومة أنكليزية عسكرية دعيت "ادارة بلاد العدو المحتلة" وتعين الجنرال كلايتن Clayton مديراً عاماً لها ثم خلفهُ الجنرال مونى Money فالجنرال وطسن Watson فالجنرال بولز Bols وقد تغيرت هذه الإدارة فى إبتداء سنة ١٩٢٠م إدارة ملكية عَلَى رأسها السر هربرت صمويل مندبواً سامياً لجلالة الملك جورج وعهد إليه تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود كما قرر مؤتمر سان ريمو فى ٢٠ نيسان من سنة ١٩٢٠م فقدم المندوب السامى وتلا أمر "فرمان" جلالة الملك فى الطور يوم الأربعاء فى ٧ تموز وهذا نصهُ:

إلى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية:

إلى أهالى فلسطين

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت

بلادى أمر الوصاية عَلَى فلسطين لكى تسهر عَلَى صوالحها وتكفى بلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تنشدونهُ. أنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت به جنودى تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللنبى بتحرير بلادكم من النير التركى وسأتهلل حقيقة إذا وُفّقت أنا وشعبى أيضاً إلى أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة. أنى أرغب أن أؤكد لكم أن الدولة ذات الوصاية ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقاً كما وأن فى عزم حكومتى أن تحترم حقوق العناصر والمذاهب عَلَى اختلافها فى المدة التى يلزم انقضاؤها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائياً على أمر الوصاية وفى المستقبل عند ماتكون قد صارت الوصاية أمراً واقعاً.

لايخفاكم أن الدول المتحالفة والمشتركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج وهذه التدابير لن تؤثر قطعياً على حقوق الأهالى الدينية أو المدنية ولن تنقص من الرقى المنوى لعموم طبقات الشعب الفلسطينى: أنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبتهُ لانفاذ هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤُول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبه. أنى أدرك جيداً خطورة الائتمان المحدقة بحكومةِ البلاد التى يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى على السواء وسأحافظ بكل اهتمام وعاطفة حارة فى المستقبل عَلَى رقى وعمران البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.

ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل فى حيفا وشرع بتطبيق قرار

الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثاً العربيـة والانكليزيـة والعبريـة واعـترف بوجود القومسيون الصهيونى ووظائفه وحاول أن يقنع العرب بـأن الصهيونيـة نافعة ومفيدة فأخفق فى سعيهِ وخسرت سياسته وهنا نقـول كلمـة عـن تـاريخ الصهيونية.

(١٠٣) الصهيونية

تنتسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليـه ببيـت المقـدس والذى كان علماً للمدينة ثم أصبح مرادفاً إلى فلسطين.

فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجّـلُ الرجـوع إلى فلسـطين لجمـع شتات شعبهم المبذور بين جميع الأجناس والطوائف وفى كل بقاع الأرض وهى منطوية عَلَى مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

ان أكبر محرك لإحياء هذه الروح فى نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهـم منهـم لأنهـم يميلـون إلى الربـا الفـاحش ولأنهـم مستهلكون غير محدثين ولرغبتهم فى احتكار التجارة ولتعصبهم الدينـى وهـذه نبذة من صلاتهم اليومية:

" لم يخلقنـا ا لله مثـل بقيـة الشـعوب ولم يجعـل مقامنـا مثـل مقـام الأمـم الأخرى".

وأن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدنى مع اليهود فإنهم غـير راضـين عنهـم اجتماعيـاً فقـد استوحش منهـم الـروس وافحشـوا فيهـم سـنة

١٨٨١م فقام نفر منهم ونادى بجمع اليهود فى بقعة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحل الذى يتخذونه وطناً لهم فاقترح البارون هرش أن يكون فى جمهورية الأرجنتين، وذهب زنكويل باستيطان شرق أفريقيا أو أوغندا وحبذ بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس الغرب أو شبه جزيرة سيناء أو نيكاراغوا فى أميريكا الوسطى وظلوا مختلفى الرأى حتى سنة ١٨٩١م إذ نجم من فينا هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عدداً من كبار مفكرى اليهود وعقدوا مؤتمراً فى بازل "سويسره" وأجمعوا عَلَى اتخاذ فلسطين مهجراً ووطناً فذهب هرزل إلى الأستانة وباشر مفاوضة الباب العالى فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيتر الزراعية وشرع بأنشاء بعض مستعمرات "قرى" يهودية وكان كلما اعترضهُ شئ من العقبات والمشاكل اقتحمها. وقد انضم إليه نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودى دريفوس فنشط وثابر عَلَى جمع الأموال وبث الدعوة "البروبوغاندا" وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقبولها وفى أثناء الحرب العظمى نجح الزعيم الصهيونى وايزمان وأقنع وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فنطق بتصريحه المشهور وهو:

"تنظر حكومة جلال الملك البريطانية بعين الرضى إلى أنشاء وطن قومى فى فلسطين وتبذل الجهد فى سبيل ذلك عَلَى أن لايجرى مايضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين الدينية والمدنية أو مايضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى ماسواها من الممالك".

وإنا ذاكرون هنا الأعمال الكبيرة التى تمت على عهد المندوب السامى وهى: تعيين مجلس استشارى مؤقت مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب فلسطين لمهاجرى اليهود وتأسيس مجلس إسلامى أعلى يدير الأوقاف والمحاكم الشرعية الدينية مؤلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسوا الجمعيات الاسلامية المسيحية فى جميع البلاد واحتجوا عليها وتظاهروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل خطتها ثم أرسلوا وفوداً إلى لندن والحجاز وأنقره ولوزان ولندن "ثانية" وقد وجدوا من لوردات الأنكليز وأشرافهم مناصرة وعطفاً.

وقد بذل المندوب السامى وسعه للتوفيق بين العرب واليهود فلم يفلح وهو المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدث فتنتان بين المتنازعين الأولى فى القدس والأخرى فى يافا قتل فيهما عدد ليس بقليل فهدأتهما الحكومة بالقوة.

فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من الحوادث قد طويناها بعد التنقيح بين دفتى هذا السفر الصغير وا لله ولى التوفيق ..

* * *

المصادر والمراجع

- التوراة
- التاريخ العام – مير
- التاريخ القديم – بورتر
- تاريخ سورية – المطران الدبس
- فلسطين وتجديد حياتها – حنا صلاح
- أبو الفدا
- ابن الأثير
- الأنس الجليل – الحنبلى
- مروج الذهب – المسعودى
- تاريخ الطبرى
- ابن خلكان
- الواقدى
- مقدمة ابن خلدون
- تاريخ التمدن الإسلامى – زيدان
- تاريخ مصر الحديث – زيدان
- تاريخ دول الإسلام – منقريوس
- تاريخ الدول العثمانية – فريد وجدى
- مشهد العيان فى تاريخ سورية ولبنان – مشاقة

- عمرو بن العاص – حسن ابراهيم حسن
- صلاح الدين – أحمد بيلى
- معجم البلدان – ياقوت
- رحلة ابن جبير
- رحلة ابن بطوطه
- محاضرات الخضرى
- أشهر مشاهير الإسلام – رفيق بك العظم

- The works of Josephus.
- Biblical Geography and History - Kent.
- The House of the Seleueids - Bevan.
- Jerusalem Under the High Priests - Bevan.
- The Philistines - Maealister.
- A History of Civilization in Palestine - Macalister.
- The Rise and Fall of the Roman Empire - Gibbon.
- The Hisotrical Geogrphy of the Holy Land - G.A. Smith.
- Palestine under the Moslems - Guy Le Strange.
- The Encyclopedia Britannica.
- The Orient in Bible Times - Grant.

فهـــرس الكتاب

اسم الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة المؤلف	٣
مقدمة الكتاب	٥
القسم الأول	٧
من بدء التاريخ إلى الفتح الاسلامى	٧
الفصل الأول	٧
تاريخها قبل اليهود	٩
حدودها	٩
مساحتها	١٠
اسماؤُها	١٠
تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها	١١
سكانها	١٣
الفصل الثانى	٢٥
اليهود فى فلسطين	٢٥
دور البداوة	٢٥
عصر القضاة	٢٩
اليهوذ كأمة	٣١
انقسام المملكة وخرابها	٣٦
مملكة اسرائيل	٣٧
السمرة	٣٩
مملكة يهوذا	٤١
بعض أنبياء اليهود	٤٥

اسم الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث	٤٩
من نبو خذ نصر إلى بمبى	٤٩
فلسطين فى يد الفرس	٤٩
اليونان فى فلسطين	٥٠
السلوقيون البطالسة	٥٣
المكابيون	٥٤
الفصل الرابع	٥٧
الاحتلال الرومانى	٥٧
هيرودس	٥٧
السيد المسيح	٦٠
جلال اليهود ثانية	٦٣
قلعة مسادا	٦٩
هدريان	٧٠
قسطنطين وتنصير فلسطين	٧٢
آثار الرومان واليونان	٧٣
القسم الثانى	٧٧
الفتح الاسلامى حتى عصر العثمانيين	٧٧
الفصل الخامس	٧٧
العرب قبل الإسلام	٧٧
النهضة الإسلامية	٨٠
النبى محمد صلى الله عليه وسلم	٨٣

اسم الموضوع	رقم الصفحة
انفاذ جيش أسامة	٨٤
وقعة اليرموك	٨٥
وقعة اجنادين	٩٠
فتح بيت المقدس	٩١
ادارة البلاد وأسباب نجاح العرب	٩٥
الفتح الإسلامى والخلفاء الراشدين	٩٨
نبذة عن القرآن	١٠١
آثار الخلفاء	١٠٣
ابطال النهضة الإسلامية	١٠٣
الفصل السادس	١١٢
فلسطين أموية	١١٢
بناء الحرم الشريف	١١٦
الوقائع الأموية	١١٨
محدثات بنى أمية وميزاتهم	١٢٣
بعض أبطال الدولة الأموية	١٢٥
الدعوة العباسية	١٢٨
الفصل السابع	١٣١
فلسطين عباسية	١٣١
الفصل الثامن	١٣٧
الدولة الطولونية	١٣٧
الدولة الأخشيدية	١٣٩

اسم الموضوع	رقم الصفحة
بعض أبطال الدولة العباسية	١٤٢
الفصل التاسع	١٤٧
الدولة الفاطمية	١٤٧
الحاكم بأمر الله	١٥٢
الدولة السلجوقية	١٥٦
الفصل العاشر	١٥٩
الصليبيون	١٥٩
فتح القدس	١٦٢
الفصل الحادى عشر	١٦٧
حالة العالم الإسلامى	١٦٧
معركة حطين	١٧٢
الحملة الصليبية الثالثة	١٧٦
صلاح الدين ومواسم فلسطين	١٨٠
الدولة الأيوبية	١٨٢
الخوارزمية	١٨٧
أضرار الحروب الصليبية	١٨٨
فرسان مار يوحنا	١٩٢
الهيكل	١٩٣
الفصل الثانى عشر	١٩٥
المماليك البحرية	١٩٥
الملك المظفر قطز	١٩٥

اسم الموضوع	رقم الصفحة
الملك الظاهر بيبرس	١٩٨
انتقال الخلافة العباسية إلى مصر	١٩٩
محمد بن قلاوون	٢٠٠
المماليك الجراكسة	٢٠٠
أبو سعيد برقوق	٢٠٠
مجيئ التتر	٢٠١
القسم الثالث	٢٠٥
عهد الدولة العثمانية	٢٠٥
الفصل الثالث عشر	٢٠٥
تمهيد	٢٠٥
نشوء الدولة العثمانية	٢٠٧
السلطان سليمان	٢٠٩
الأمير على المصرى وظاهر العمر	٢١١
أحمد باشا الجزار	٢١٤
الفصل الرابع عشر	٢١٧
بونابرت فى فلسطين	٢١٧
منشور نابليون	٢٢٠
ثورة جبل نابلس	٢٢٥
ابراهيم باشا	٢٢٧
ثورة أمراء فلسطين	٢٢٨
حرب القرم	٢٢٩

اسم الموضوع	رقم الصفحة
نقود وموازين ومكاييل فلسطين	٢٣١
بعض أسواق فلسطين	٢٣٤
أقسام فلسطين الإدارية	٢٣٤
قيس ويمن	٢٣٦
الحرية فى فلسطين	٢٤١
ثورة حوران	٢٤٤
الفصل الخامس عشر	٢٤٥
الحرب العظمى	٢٤٥
التموين	٢٤٨
وسائط النقل	٢٤٨
تعبيد الطرق	٢٤٨
المؤسسات	٢٥٠
البعثة الألمانية العسكرية	٢٥٠
الجراد	٢٥١
الحركة الاقتصادية	٢٥٢
الصحة العمومية	٢٥٣
الأخلاق العمومية	٢٥٣
الديوان العرفى	٢٥٤
الثورة العربية	٢٥٥
الحملات الحربية	٢٥٦
الهجرة	٢٥٨

اسم الموضوع	رقم الصفحة
الفصل السادس عشر	٢٦١
الاحتلال الانكليزى	٢٦١
تاريخ الصهيونية	٢٦٢
مصادر البحث	٢٦٧
فهرس الكتاب	٢٦٩

رقم الإيداع	٢٠٠١ /٧٦٩٤
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -027 -7

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

Bibliotheca Alexandrina
0352898

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٣٦٢٧٧ فاكس : ٥٩٢٢٦٢٠